مجلة كامبريدج للبحوث العلمية: مجلة علمية محكمة
تصدر عن مركز كامبريدج للبحوث والمؤتمرات–العدد الخامس الثلاثون – تموز ٢٠٢٤– محرم ١٤٤٦
ISSN–2536–0027

دلالة الرّمز الصّوفي وأثره في اللغة

الباحثة نيگار صابر صالح
negarsabr١٩٧٨@gmail.com
المشرفة أ.د نعيمه محمد شكر
الجامعة الاسلامية في لبنان/ قسم اللغة العربية/ التخصص اللغة

الملخّص
يتناول هذا البحث الرّمز الصّوفي في محاولة لبيان دلالته وأثره في اللغة؛ إذ تتحوّل اللغة العاديّة إلى لغة صوفيّة عندما يعتري التّرميز ألفاظها، فيصير للفظة العاديّة المعروفة معنى جديد غير معروف، بل يحتاج إلى بحث وتعمّق لفهم المقصود منه. وقد تطلّبت طبيعة الموضوع أن نقسم البحث إلى مبحثين؛ الأول نظري يعرّف بالرّمز والصّوفي في اللغة والاصطلاح، والثّاني تطبيقي يحاول قراءة دلالة الرّمز الصّوفي وأثره في اللغة قراءة تحليليّة معتمدين الطريقة الوصفية التّحليلية. وقد انتهى البحث إلى مجموعة من المحصلات أهمها أنّ الرّمز الصّوفي هو أبرز خواص اللغة الصّوفيّة وتتجلّى دلالته في تحويل الموضوعات اللغويّة المعروفة مثل المرأة والخمر والحب إلى موضوعات صوفيّة لا يمكن فهمها إلّا بتأويلها في إطار التّجربة الصّوفيّة، وهذا ما جعل الغموض أهم آثار الرّمز الصّوفي في اللغة التي باتت خاضعة لنظام التّأويل في سبيل فهم المقصود منها.

Abstract
This research deals with the Sufi symbol in an attempt to explain its significance and impact on the language. Ordinary language turns into a mystical language when coding takes over its words, so the ordinary, well-known word has a new, unknown meaning. Rather, it requires research and in-depth research to understand what is meant by it. The nature of the topic required that we divide the research into two sections: The first is theoretical, defining the symbol and the Sufi in language and terminology, and the second is applied, trying to read the significance of the Sufi symbol and its impact on language in an analytical manner, adopting the descriptive and analytical method. The research concluded with a set of conclusions, the most important of which is that the Sufi symbol is the most prominent characteristic of the Sufi language, and its significance is evident in transforming well-known linguistic topics such as women, wine, and love into Sufi topics that cannot be understood except by interpreting them within the framework of the Sufi experience, and this is what made ambiguity the most important effects of the Sufi symbol in the language. Which has become subject to a system of interpretation in order to understand its meaning.

مجلة كامبريدج للبحوث العلمية: مجلة علمية محكمة
تصدر عن مركز كامبريدج للبحوث والمؤتمرات–العدد الخامس الثلاثون – تموز ٢٠٢٤– محرم ١٤٤٦
ISSN-2536-0027

المقدّمة:

تعد التّجربة الصّوفيّة من أبرز التّجارب التي مر بها الإنسان على المستوى اللغوي؛ إذ تتجلّى من خلال نزعتها الرّمزيّة التي تكتنفها، حتّى صار الرّمز الصّوفي من أهم معالمها؛ إذ يحاول الصّوفي "الفكاك من قيود الواقع ونواميس المألوف والارتقاء نحو مدارات الكمال المنشود" (متولي، مروة،٢٠٠٨م، ص١٣٩)، وهذا يستدعي استعمال اللغة بطريقة خاصّة، فكان الرّمز أبرز أدوات الصّوفيّة في التّعبير عن فكرهم وتجربتهم في اللغة، فالصّوفي يسعى "للعبث بنظامها (اللغة) القاموسي وتفجير دلالاتها، ذلك أنّ التّركيب العادي والسّائد سيكون قاصراً وعاجزاً عن تصوير حقيقة الشّعور الصّوفي، وهنا يلجأ الشّاعر إلى البحث في ثنايا الكلمات عن كلّ ما من شأنه أن يحوّل تجربة الشّعور والوجدان إلى تجربة بالكتابة والمكاشفة الرّوحيّة" (جميات، منى، ص ٥٢).

وذلك في محاولة لقراءة الذّات بـ "أبعادها الفكريّة والرّوحيّة، فيكثر التّأويل في مناخ الأحلام والرّؤى الغامضة، ممّا يؤدّي إلى مفردات خاصّة، وإحالات ثقافيّة مغرقة في الإيهام والغوص الذّاتي والهيام الرّوحي" (متولي، مروة، ص ١٣٦).

وانطلاقاً من المكانة التي يضطلع بها الرّمز في التّجربة الصّوفيّة، فإنّ هذا البحث سيحاول استكناه أهم دلالاته وأثره في اللغة؛ في محاولة لبيان ماهيّته وأهميّته في التّشكيلات اللغويّة الصّوفيّة.

أهميّة البحث:

تتأتّى أهميّة الدراسة من خصوصيّة موضوعها المتمثّل بالرّمز الصّوفي ودلالته وأثره في اللغة، إذ إنّ ذلك الرّمز يعد العلامة الفارقة التي تميز اللغة الصّوفيّة وتحقّق فرادتها، بل إنّه يمنحها هويّتها الصّوفيّة، فالألفاظ العاديّة لم تعد دالة على مدلول بعينه، بل صارت _ في نظام الرّمز الصّوفي _ علامات هائمة لا تحقّق وجودها ودلالتها إلّا في ظلال الرّمز الصّوفي.

الإشكاليّة:

ينطلق البحث من إشكاليّة رئيسة مفادها: ما هي الدّلالات التي يحملها الرّمز الصّوفي في السّياق اللغوي، وما هي أهم الآثار التي يورثها استعماله في اللغة؟

وهذا السّؤال يتشعّب لأسئلة عدّة، منها:

. ما مفهوم الرّمز في اللغة والاصطلاح، وما الخصوصيّة التي يكتسبها بسياق التّجربة الصّوفيّة؟

. كيف تتجلّى دلالات الرّموز الصّوفيّة كالمرأة والحبّ والخمر في اللغة؟

. ما علاقة الغموض والتّأويل بالرّمز الصّوفي؟

منهج البحث:

ستتبنى الدراسة الطريقة الوصفية المشفوعة بالتّحليل، وذلك من خلال رصد موضوع البحث قيد الدّراسة وهو الرّمز الصّوفي، ومحاولة تحليل أبعاده الدّلاليّة والجماليّة في اللغة؛ بغية الكشف عن دلالاته وأثره فيها.

خطّة البحث:

تفرض طبيعة البحث أن نقوم بتوزيع مادّته بين مبحثين: الأول نظري يتحدد بتعريف الرّمز والتّصوّف لغة واصطلاحاً واستخلاص مفهوم الرّمز الصّوفي من اجتماعهما. والمبحث الثّاني تطبيقي؛ غايته الكشف عن دلالة الرّمز الصّوفي وأثره في اللغة.

مجلة كامبريدج للبحوث العلمية: مجلة علمية محكمة
تصدر عن مركز كامبريدج للبحوث والمؤتمرات–العدد الخامس الثلاثون – تموز ٢٠٢٤– محرم ١٤٤٦
ISSN-2536-0027

المبحث الأول: مفهوم الرّمز الصّوفي:

يتكوّن مفهوم الرّمز الصّوفي من لفظين، هما: الرّمز / التّصوّف، ومن ثمّ؛ فإنّ تحديد المقصود به يتحقق من خلال بيان معناهما اللغوي والاصطلاحي:

المطلب الأول: الرّمز لغة واصطلاحاً.

يدلّ الرّمز في اللغة على معنى "إصدار صوت ضعيف باللسان يشبه الهمس، وذلك عن طريق حركة الشّفاه لتأدية ألفاظ غير واضحة بالنّطق، ويكون الصّوت غير بائن، بل يقتصر على هيئة الشّفتين المتحرّكتين، ولذا وصف الرّمز بأنّه إشارة وإيماء بأعضاء الوجه، وبذلك فإنّ معناه اللغوي يتمثّل في الإشارة إلى كل ما يبان بلفظ، سواء أأشرت إليه بيدك أو بعينك" (ابن منظور، ١٩٥٦م، مادة: رمز).

فالمعنى الأولي الذي يفهم للرّمز في اللغة أنّه إشارة ممكن إدراكها بالحواس، وهذا ما يذكره ابن رشيق الذي يرى أنّ "الإشارة من غرائب الشعر وملحه، وبلاغة عجيبة، تشير إلى بعد الهدف وفرط المقدرة، ولا يقدر على الإتيان بها إلا الشاعر المبرز، الماهر الحاذق، وهي بكل نوع من الكلام لمحة دالة، واختصار وتلويح" (القيرواني، ابن رشيق، ١٩٨١ م، ص ٣٠٢).

فهو يؤكد معنى الإشارة؛ غير أنّها هذه المرّة إشارة لغويّة تمثّل علامة مميزة للنّص ومبدعه، فكلّما كان الرّمز بعيد المرمى والدّلالة، كلما كان مبدعه حاذقاً ولمّاحاً.

ويعود الرّمز إلى الجذر اللغوي (ر / م / ز)؛ و" الرّاء والميم والزّاء أصلٌ واحدٌ يدلُّ على حركة واضطراب"(ابن فارس، د.ت، ص٤٣٩).

ويمكن تأويل هذا المعنى على أنّه ممّا يدرك بالحواس، ويشي بمعنى الإشارة المرئيّة؛ أي إنّ معنى الإشارة متضمّن في معنى الحركة والاضطراب. وقد لخّص صاحب القاموس كلّ هذه المعاني بقوله: "الإشارةُ، أو الإيماءُ بالحاجبَين أو العينين أو الشّفتين أو اللّسان أو الفمِ أو اليد، يَرمُزُ ويرْمِزُ. والرَّمَّازةُ: السّافلةُ، والمرأة الزّانية، وشحمةٌ في عين الرُّكبةِ، والكَتِيبةُ الكبيرةُ التي ترتمِزُ؛ أي: تتحرّكُ وتضطربُ من جَوانبها. والرّميزُ: الكثيرُ الحركةِ.."(الفيروزأبادي، ٢٠٠٨م، مادة رمز)، فهذه جميعها من معاني الرّمز ودلالاته، ولعلّ استخدام الذكر الحكيم لهذه المفردة جاء بهذه المدلولات التي تحيل إلى مدلول الإشارة أو الحركة، ففي كلامه تعالى:

﴿قالَ ربِّ اجعلْ لي آيةً قالَ آيتُكَ ألّا تُكلِّمَ النَّاسَ ثلاثةَ أيَّامٍ إلّا رمزاً واذكُر ربَّكَ كثيراً﴾(سورة آل عمران، الآية: ٤١).

فالرّمز هنا هو الحركة من دون إصدار صوت؛ أي كلام، فلفظ الرّمز في قوله تعالى يعني، "إشارة لا يمكنك أن تنطقها مع أنّك قادر على ذلك"(ابن كثير، ٢٠٠٠م، ٣/ ٥٨)، فالقرآن الكريم يؤكد الدّلالة اللغويّة للرّمز، وأمّا الدّلالة الاصطلاحيّة، فإنّها تشير إلى أنّه "يمثّل شيئاً يختلف عنه، وهو على وجه التّخصيص، أشبه بلفظة أو جملة أو تركيب آخر يشمل مجموعة من الدّلالات المتضامّة، وعلى ذلك فإنّه ينبغي النّظر إليه بوصفه يضمّ قيماً تختلف عما يضمّه ما يشير إليه مهما كان" (فتحي، إبراهيم، ١٩٨٦ م، ص ١٧١)؛ فهو شيء، ومدلوله شيء آخر، ولكنّه مع ذلك يشير إليه ويدلّ عليه، والإشارة هنا لا تعني المشابهة أو الوحدة بين الرّمز ومرموزه، وإنّما الرّمز "أجود تركيبة مستطاعة معبِّرة عن ذلك الشّيء غير المعروف نسبيّاً، وعلى هذا التّعيين، نستطيع أن نقول: إنّ الرّمز يتلاشى عندما نبتكر أسلوباً آخر أفضل منه في التّعبير عن المرموز إليه" (نصر، عاطف، ١٩٧٨ م، ص ٢٠).

مجلة كامبريدج للبحوث العلمية: مجلة علمية محكمة
تصدر عن مركز كامبريدج للبحوث والمؤتمرات–العدد الخامس الثلاثون – تموز ٢٠٢٤– محرم ١٤٤٦
ISSN-2536-0027

وفي السّياق اللغوي، يبدو الرّمز صلة بين المبدع والمتلقي، فهو في الشّعر يمثّل "حلقة الوصل التي تجمع بين القارئ والنّص، ومن خلالها يتمكّن من الدّخول إلى عوالم ذلك النّص" (باشلار، غاستون، ١٩٨٤ م، ص٢٠).

وهو ينقل لغة الشّعر من بساطتها التّعبيريّة إلى إيحائها المعقدّ والمحكم، فالإبداع الشّعري لا يتمّ إلّا بـ "تحقيقه مستوى من الانسجام والتّعاضد ومستوى من الإيحاء الرّوحي أو الإبهام.. وبذلك فإنّ الشّعر يكون غير حقيقيّ عندما يضمّ زيادة في الصّياغة لأداء الدّلالة، عوضاً عن صياغتها بشكل موحي"(فتوح، محمّد، ١٩٧٨ م، ص ١١٩).

وبذلك فإنّ مفهوم الرّمز بين اللغة والاصطلاح يكاد يكون واحداً، أو بمعنى آخر، إنّ مصطلح الرّمز يستند إلى معناه اللغوي، فالرّمز إشارة إلى المعنى وإيحاء به، وكلّما حقق الرّمز ذلك، كلّما عبّر عن مفهوم الرّمز بشكل أبين وأكمل.

المطلب الثّاني: الصّوفيّة لغة واصطلاحاً.

إنّ الصّوفيّة اشتقاق مأخوذ من الجذر اللغوي (ص - و- ف)؛ وهو "أصلٌ واحدٌ صحيح، وهو الصّوفُ المعروف. والباب جميعه يعود إليه" (ابن فارس، ص٣٢٢)، فـ "الصّوفُ للضّأن وما أشبهه"(ابن منظور، ١٩٥٦م، ج ٢٨، مادة صوفَ)؛ ويقال: "صافَ الكبشُ صَوْفاً وصُووفاً، فهو صافٌ وصافٍ وأصوفُ وصائفٌ... وصوفانيٌّ بالضّم، وهي بهاء: إذا كان كثيراً"(الفيروز أبادي، ٢٠٠٨م، مادّة (صوف)، ص٩٥٧).

ومن ثمّ جاء اصطلاح الصّوفيّة معتمداً على هذا المعنى اللغوي، إذ إنّ كلمة "تصوف مصدر الفعل تصوف؛ للدلالة على لبس الصّوف"(دائرة المعارف الإسلاميّة، ١٩٩٤، مادّة: تصوّف).

وهذا أحد تعليلات التّسمية، وفيه وجه؛ إذ إنّ الصّوف يشي بحالة الزّهد وعدم الاعتناء بالمظهر؛ وكأنّهم يتشبّهون باللباس الذي اختاره الله لمخلوقاته مثل الضّأن وما يشبهه.

ويعيد آخرون هذه التّسمية إلى معنى الصّفاء؛ فيذهبون إلى أنّ لفظ التّصوّف في اللغة العربيّة يرتبط بالصّفاء، فقد "دُعي هذا المذهب بذلك لصفاء حقيقته ونقاء آثاره، وقال بشر بن الحارث: (الصّوفي مَن صفا قلبه لله)، في حين عرفه آخرون: (هو مَن صفت معاملته، فتحقق صفاء كرامته له من الله جلّ وعلا). (الكلاباذي، ١٩٩٨، ص٢٤).

وهناك من رأى أنّ أصل اللفظة غير عربي، وإنّما يعود إلى "اللفظ الإغريقي(صوفيا) وهي الحكمة. وأمّا أتباع الصّوفيّة فهم الحكماء"(نيسروي، سميحة،٢٠١٦ م، ص ٩ - ١٠).

وأنّى كان سبب التّسمية وأصله اللغوي، فإنّ هذا اللفظ (الصّوفيّة / التّصوّف) يمثّل مصطلحاً معرفيّاً يعني "امتثال الأمر وتلافي النّهى في العلن والباطن، من حيث يرضى لا من حيثُ ترضى"(حمدي، أيمن،٢٠٠٠ م، ص٥٠).

أي إنّه علاقة خالصة بالله تعالى؛ ومنقطعة عن كلّ مظاهر الحياة، فـ "التصوف أسلوب في السلوك أساسه الزهد والتقشف، وترك المعاصي، والتمسك بالمناقب الحسنة، لتزكية النفس والعلو بالروح"(صليبا، جميل، ١٩٩٤م، ص ٢٨٢)، أي إنّ منهجه يقوم على "الإعراض عن الدنيا، والصبر، وترك التكلف، ونهايته الفناء بالنفس، والبقاء بالله، والتخلص من الطبائع، والاتصال بحقيقة الحقائق"(صليبا، جميل، ١٩٩٤م، ص ٢٨٣).

وبذلك فإنّ "هذا الاسم (التّصوّف) مأخوذ من (الصّفاء)، والصّفاءُ هو: خلوص الباطن من الشّهوات وَالكدرات. فعلمُ التّصوّف يهتمُّ بصفاء القلبِ من الشّهوات كحبّ الرِّئاسةِ وَحبِّ السُّمعةِ وَحبِّ المحمدة من

مجلة كامبريدج للبحوث العلمية: مجلة علمية محكمة
تصدر عن مركز كامبريدج للبحوث والمؤتمرات–العدد الخامس الثلاثون – تموز ٢٠٢٤– محرم ١٤٤٦
ISSN-2536-0027

النّاس، وَبصفائه من الكدرات؛ أي الأمراض القلبيّة كالحقدِ والحسد والكبر والعجب والغرور وسوء الظّن بالنّاس"(عيسى، عبدة غالب أحمد، ١٩٩٢ م، ص ١١).

نخلص من كلّ هذه التّعريفات إلى أنّ مصطلح الصّوفيّة يدلّ على الزّهد بالظّاهر وترك المظاهر والغوص في الأعماق. وإذا جمعنا هذا المعنى إلى معنى الرّمز الذي يشي بدلالة الإشارة، يكون مفهوم الرّمز الصّوفي دالاً على كلّ إشارة توحي بمعنى صوفي خاص، أي إنّها إشارة تترك المعنى المعتاد الظّاهر وتحمل مدلولاً خاصّاً لا يمكن فهمه إلّا في رحاب المعرفة الصّوفيّة.

المبحث الثّاني: دلالة الرّمز الصّوفي وأثره في اللغة

إنّ الرّمز اللغوي بصورة عامّة يحمل دلالات خاصّة ومعان بعيدة تختلف عن ظاهر الكلام، وفي اللغة الصّوفيّة؛ تتضخّم مهمّة الرّمز وتزداد خصوصيّته، بل إنّه يمثّل الصفة التّعريفيّة للغة الصّوفية التي تأخذ هويّتها عبر البنية الرّمزيّة التي تنهض عليها. ويمكن بيان دلالة الرّمز الصّوفي وأثره في اللغة من خلال المطلبين الآتيين:

المطلب الأول: دلالة الرّمز الصّوفي في اللغة.

إنّ "ميل الصّوفيّة إلى الرّمز لا يعني عجز اللغة وقصورها، وإنّما هو راجع إلى رؤيتهم الخاصّة للغة، ولعلاقة الألفاظ بالمعاني، فالألفاظ عندهم ليست سوى رموزاً لا ترتبط بمعنى محدد سلفاً، وإنّما هي قادرة على أن تشير إلى أكثر من معنى تبعاً لاستعمال المتكلّم، والإشارة لا تعطيك المعنى بطريقة مباشرة"(القيسي، محمود، د. ت، ص ١٧).

أي إنّ الرّمز الصّوفي يُحمّل الألفاظ دلالات خاصّة تختلف عن الدّلالات المعتادة في اللغة؛ إذ تنظر مرجعيّته إلى اللغة نظرة ذوقيّة جماليّة، فهي مرجعيّة "لا ترجع إلى العقل، وإنّما ترجع إلى الذّوق، ولهذا لا يدركها أحد بفكره إدراكاً سليماً، وإنّما يدركها من تلذذ بها، ووقف في الموضع الذي يقوم فيه المتصوّف"(أمين، أحمد، ١٩٣٦م، ص ٥).

فإذا حاولنا تأويل الرّمز الصّوفي تأويلاً منطقيّاً؛ فإنّ دلالته ستختفي، بل إنّ هذا التّأويل سيؤدي إلى تحميل اللفظ دلالات خاطئة، فدلالة الرّمز الصّوفي في اللغة تشمل موضوعات وألفاظ قد تبدو بعيدة جداً عن التّجربة الصّوفيّة، ولعلّ من أهم تلك المسائل ما يتّصل بالمرأة مثل الغزل والحب، وكذلك موضوع الخمر، فقد استمدّ الصّوفيّون رموزهم من لغة الغزل، فدلّ الرّمز الصّوفي على معنى الحبّ الإلهي بلغة غزليّة تعبّر عن الحب الإلهي، ومنهم شعراء قالوا فأفاضوا، واعتمدوا على الارتجال والبديهة فأحسنوا، وأتوا في شعرهم بغرر المعاني، وروائع الخيال، وبدائع الصّور، وجميل التّشبيهات، ولطيف المجازات، ونلاحظ أنّ الشّعر الصّوفي كان من جانب آخر تحويلاً للشّعر الدّيني الإسلامي، وتوجيهاً للغزل العذري المتصوّف الهائم في مسارح الجمال الرّوحي، وكان قسم منه تغييراً لشعراء الخمريات في الأدب العربي وقسم آخر منه وهو الخاص بوصف الذّات الإلهيّة كان ترقية لفن الوصف في أدبنا القديم..."(خفاجي، د.ت، ص ٤٩).

ويمكن لنا الوقوف على دلالة الرّمز الصّوفي في اللغة من خلال قول سمنون المحبّ (زيدان، يوسف، ٢٠٠٨م، ص ١٣):

أفديك بل قلَّ أن يفديك ذو دَنَفٍ هل في المذلّةِ للمشتاق من عارِ
بي منك شوقٌ لو انَّ الصَّخر يحملهُ تفطّر الصّخرُ عن مُسْتَودِ النَّارِ

فالشّاعر هنا يحمّل المعاني الغزليّة دلالات صوفيّة، فيحوّل اللغة العاديّة الدّالة على الحب مثل (ذو دنف / المشتاق / شوق..) إلى لغة مرمّزة، فليس الحب والعشق الذي يتحدّث عنه الشّاعر حبّاً إنسانيّاً عاديّاً، إنّه حبّ

مجلة كامبريدج للبحوث العلمية: مجلة علمية محكمة
تصدر عن مركز كامبريدج للبحوث والمؤتمرات–العدد الخامس الثلاثون – تموز ٢٠٢٤– محرم ١٤٤٦
ISSN-2536-0027

صوفيّ يتّصل بالحضرة الإلهية، فدلالة الرّمز الصّوفي تتحدد في تحرير اللفظ من معناه المعتاد وإعطائه أبعاداً دلاليّة صوفيّة.

كما حمّل الصّوفيّون موضوعات الخمر معان صوفيّة، فكانت موضوعات الخمر رموزاً صوفيّة ذات دلالات خاصّة في اللغة، ففي قول ابن الفارض (النّابلسي،١٩٧١ م، ص ٨١):

شَرِبْنا على ذِكْرِ الحَبيبِ مُدامةً سَكِرْنا بها من قَبلِ أن يُخلَقَ الكرمُ
لها البدرُ كأسٌ وهي شمسٌ يُديرُها هلالٌ وكم يبدو إذا مُزِجَت نَجْمُ

فاللغة هنا ليست لغة عاديّة والألفاظ الخمريّة مثل (شربنا / مدامة / سكِرنا / كأس / مزجت..) ليست دالة على معناها الوضعي، بل إنّها رموز صوفيّة تشير إلى حالة السّكر المعرفي في الحضرة الإلهيّة، فدلّ الرّمز هنا على المعاني النّفسيّة مثل النّشوة والرّاحة والانبساط التي يشعر بها الصّوفي وهو في كنف التّجربة المعرفيّة الصّوفيّة.

وعلى ضوء هذه الدّلالات الصّوفيّة التي تم التعبير عنها من خلال الرّموز الصّوفيه، فإن "الرمزية في الغزليات والخمريات ليست بالغريبة على الشعر الصّوفي في الإسلام، بل إنّها لم تبد في غير التّصوّف، بمثل هذا الغنى وعلى نحو من ذلك الصدق"(الخطيب، علي،١٤٠٤ه، ص ١٢).

وليس فقط في هذه الموضوعات، بل إنّ الطّبيعة وكلّ مظاهر الكون صارت خاضعة للمعاني الصّوفيّة في ظل دلالات الرّمز الصّوفي، ففي قول الحلّاج (الشّيبي، كامل مصطفى، د.ت، ص ٢٧٨): (من البحر الوافر)

سُكوتُ ثُمَّ صَمْتٌ ثمَّ خَرْسٌ وعِلْمٌ ثمَّ وَجْدٌ ثمَّ رَمْسُ
وطينٌ ثمّ نارٌ ثمّ نورٌ وبردٌ ثمّ ظِلٌّ ثمّ شمسُ
وحَزْنٌ ثمّ سَهْلٌ ثمّ قفْرُ ونهرٌ ثمّ بحرٌ ثمّ يُبْسُ
وسُكْرٌ ثمَّ صحو ثمَّ شَوْقٌ وقُربٌ ثمّ وصْلٌ ثمَّ أُنسُ

فهذه العبارات جميعها محمّلة بالدّلالات الصّوفيّة، ومن ثمّ فقد تحوّلت إلى رموز صوفيّة؛ "فالأشياء جميعها تحمل بعداً رمزيّاً، وقد يحمل بعضها ترميزاً لمعاكسه، كأن يكون الموت رمزاً للحياة، ويتمّ تأويل الموت هنا على أنّه مظهر لحياة ثانية"(يونس، وضحى، د.ت، ص١٠٧).

وبذلك يظهر جليّاً أنّ دلالة الرّمز الصّوفي في اللغة لا تقف عند حد موضوع أو ظاهرة بعينها، بل إنّ كل لفظة لغويّة قابلة أن تصير رمزاً صوفيّاً عندما يقوم الصّوفي بتحميلها دلالات صوفيّة خاصّة.

المطلب الثّاني: أثر الرّمز الصّوفي في اللغة.

يظهر أثر الرّمز الصّوفي بوصفه ميزة هامة من ميزات اللغة الصّوفيّة التي "تتمتع بمجموعة من الخصائص والمقوّمات التي تحدد كيانها، وتميزها عن غيرها، وربّما كانت أبرز هذه الخصائص هي نزوعها إلى غموض الرّؤية أو المعنى الذي لا ينكشف على شيء واضح بل يبدو_ غالباً _ مضمراً وضبابيّاً على القارئ"(جميات، منى،٢٠١٥ م، ص ٥٣).

وهذا يعني أنّ الغموض والإبهام من أبرز آثار الرّمز الصّوفي في اللغة، وهذا أثر بدوره، يستدعي قراءة عميقة لكشف الغموض تتمثّل في تأويل الرّموز والكشف عن مدلولاتها المقصودة.

ويبرز أثر الرّمز الصّوفي بشكل بارز في اللغة الشّعريّة؛ إذ إنّ "توظيف الرّمز من قبل الشّاعر الصّوفي يصبح مسلكاً طبيعيّاً ينتهجه؛ لتجسيد غموض المعنى من جهة، ولإثارة إشكاليّة اللغة من جهة أخرى، فهذه اللغة تأتي مفارقة للعادي والمألوف وتنصرف إلى قول المسكوت عنه والمبهم، تتأسّس على أبعاد رمزيّة وحمولات دلاليّة تنساق مع غموض النّفس، ومكابدتها ووجعها الذّاتي"(جميات، منى،٢٠١٥ م، ص ٥٣).

ففي قول ابن عربي (ابن عربي١٩٩٦م، ص ٥٧): (من بحر الرّمل)

مجلة كامبريدج للبحوث العلمية: مجلة علمية محكمة
تصدر عن مركز كامبريدج للبحوث والمؤتمرات–العدد الخامس الثلاثون – تموز ٢٠٢٤– محرم ١٤٤٦
ISSN-2536-0027

ولقد عانقتُ منها غُصناً يخجلُ الغصنُ إذا ما انعطفا
وارتَشفنا ريقة مِسكيةً تخجلُ الشَّهدَ إذا ما ارتُشفا(١)

نرى أنّ ألفاظه تصوّر حالة حسّيّة قائمة على الشّهوة الإنسانيّة التي ترغب في التماس العناق والقُبَل من المحبوب، غير أنّ هذه المعاني الحسّيّة ليست حقيقيّة بمعناها الحرفي، فقد أثر الرّمز الصّوفي وحوّلها إلى مصطلحات صوفيّة ذات أبعاد روحيّة ومعرفيّة؛ فالعناق أضحى صوفيّاً، والرّيقة صارت رمزاً صوفيّاً يشير إلى المعرفة الصّوفيّة؛ ففي اللغة الصّوفيّة "كلّ شيء يبدو رمزاً، كلّ شيء هو ذاته وشيء آخر"(أدونيس ١٩٨٢ م، ص ٢٣). وفي التّجربة الصّوفيّة "تضيق الألفاظ عن التّعبير وتتفجّر اللغة، وتتحوّل إلى إشارات، إلى رموز، إلى أفلاك سابحة"(متولّي، مروة،٢٠٠٨ م، ص ٦٦)، وهذا ما ظهر في تصوير ابن عربي لمعانيه الصّوفيّة بصور حسّيّة لم تعد تعني دلالاتها المباشرة، ولو أنّ المتلقي أوّل هذين البيتين بمعناهما الحسّي لابتعد كلّ البعد عن المعنى المقصود، ولكنّه مع ذلك يظلّ مقبولاً، ولكنّه يخرج من إطار الصّوفيّة ليكون شعراً غزليّاً عاديّاً؛ فـ "الشّعر الصّوفي يمتاز بتعدد القراءات وحرّيّة التّأويل عند المتصوّفة، فضلاً عن أنّ الشّاعر الصّوفي قد يعبّر أحياناً وهو لا يستطيع استشفاف ما في داخله من مشاعر وعواطف قويّة، يحسّها ولكنّها تستعصي على الكشف، فيعمل التّأويل على توضيحها وتقريب الغامض منها إلى ذهن المتلقّي"(القيسي، محمود، د. ت، ص ١٧.)

وبذلك كانت "لغة الرّمز والإشارة عند الصّوفيّة الوجوديّة هي أساس تأويل النّصوص، فبها يفهمون النّص القرآني والنّبوي، ويربطون بين العبارة والإشارة في الرّمز، وبين الظّاهر والباطن في التّأويل، فظاهر العبارة ما تدلّ عليه من حيث وضع اللغة، والإشارة هي باطن اللغة، ويصطلحون فيما بينهم على ألفاظ يسرون خلفها معاني كشفيّة، اتّقاء لسوء فهم أهل الظّاهر"(مدرك، خالد بن العربي،١٤٢٢هـ، ص ٢٠٩).

أي إنّ أثر الرّمز الصّوفي في اللغة يظهر في كونه يضفي عليها غموضاً وإبهاماً لا يمكن كشفه إلّا بالآليّات التّأويليّة التي تبحث عن المعاني الثّواني ولا تقف عند المعاني الأول، ويمكن بيان ذلك من خلال قول ابن عربي (ابن عربي، ١٩٩٦م، ص ٩٨): (من مجزوء الخفيف)

كم رأينا برامة مِن طلولٍ ودارسِ
ما رأينا من غادةٍ في الجواري الأوانسِ
مثل لبنى إذا أقبلت نحونا من غدامس(٢)

ففي هذا السّياق الحجازي المتمثل بذكر (رامة) يظهر لنا الحضور الأنثوي من خلال اسم (لبنى)؛ ممّا يضفي على الخطاب الصّوفي الشّعري غموضاً يتأتّى من غرابة الجمع بين المعاني الغزليّة الأنثويّة والأماكن الحجازيّة ذات المكانة الرّوحيّة والقدسيّة في الثّقافة الإسلاميّة التي ينتمي إليها ابن عربي. من هنا يجيء عمل التّأويل ليبحث عن المدلول المقصود من ذكر (لبنى)؛ هذا الاسم الذي تحوّل إلى رمز صوفي يشي بالمعرفة الإلهيّة والعرفان الصّوفي.

الخاتمة:

هكذا نرى من خلال ما تقدّم أنّ الرّمز في الصّوفيّة لم يقف عند حدود الدّلالة الظّاهرة أو المعروفة للفظ، بل إنّه كسا الألفاظ دلالات خاصّة أثرت في اللغة وحوّلتها إلى لغة غامضة مبهمة لا يمكن فهمها إلّا إذا تمّ فكّ شفرة الرّمز الصّوفي، وتتمثّل خلاصة البحث فيما يأتي:

يتكوّن مفهوم الرّمز الصّوفي من جزأين؛ الرّمز الذي يعني الإشارة، والصّوفي الذي يشير إلى تجربة معرفيّة تتسم بالزّهد والتّقشّف، ومن ثمّ فإنّ اجتماع المعنيين يكوّن مفهوم الرّمز الصّوفي الذي يدل على المعاني الثّواني التي تحملها الألفاظ اللغويّة في إطار التّجربة الصّوفية.

ISSN–2536–0027

تتجلى دلالة الرّمز الصّوفي في اللغة من خلال تطويعه لموضوعات متنوّعة وإخراجها مخرجاً صوفيّاً، حتّى صارت الألفاظ الغزليّة والخمريّة والحسيّة رموزاً صوفيّة خاصّة.

يتجلّى أثر الرّمز الصّوفي في اللغة في أنّه يضفي عليها الغموض، فتتحوّل إلى لغة مبهمة لا يمكن فهمها في سياقها الصّوفي من دون إخضاعها لآليّات التّأويل التي تحلّ لغزها وتكشف دلالتها الصّوفيّة.

المصادر والمراجع:

القرآن الكريم

١. ابن عربي، (١٩٩٦م)، الدّيوان، شرحه: أحمد حسن بسج، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، ط١.
٢. ابن فارس، (د.ت)، مقاييس اللغة، تحقيق وضبط: عبد السّلام محمّد هارون، دار الفكر للطّباعة والنّشر والتّوزيع، ج٣.
٣. ابن كثير، (٢٠٠٠م)، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: مصطفى السّيّد محمّد وآخرون، مؤسّسة قرطبة، القاهرة، ط ١، ج ٣.
٤. ابن منظور، (١٩٥٦م)، أبو الفضل جمال الدين بن محمد بن مكرم المصري الإفريقي، لسان العرب، دار صادر – بيروت.
٥. أدونيس، (١٩٨٢م)، الثّابت والمتحوّل، دار العودة، بيروت، ط ٣، ج ٢.
٦. أمين، أحمد، (١٩٣٦م)، الرّمز في الأدب الصّوفي، مجلّة الرّسالة، ع ٣، س ٤.
٧. باشلار، غاستون، (١٩٨٤م)، جماليات المكان، ترجمة: غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للطّباعة والنّشر، بيروت، ط ٢.
٨. جميات، منى، (٢٠١٥م)، اللغة في الخطاب الصّوفي، مجلّة حوليّات التّراث، جامعة مستغانم، ع ١٥.
٩. حمدي، أيمن، (٢٠٠٠م)، قاموس المصطلحات الصّوفيّة (دراسة تراثيّة مع شرح اصطلاحات أهل الصّفاء من كلام خاتم الأولياء)، دار قباء للطّباعة والنّشر والتّوزيع، القاهرة.
١٠. الخطيب، علي، (١٤٠٤ه)، اتجاهات الأدب الصّوفي بين الحلاج وابن عربي، دار المعارف، مصر.
١١. خفاجي، (د.ت)، دراسات في التّصوّف الإسلامي ظلاله في الأدب العربي، مكتبة القاهرة، مصر، ج٢.
١٢. دائرة المعارف الإسلاميّة، (١٩٩٤م)، مركز الشّارقة للإبداع الفكري.
١٣. زيدان، يوسف، (٢٠٠٨م)، شعراء الصّوفيّة المجهولون، دار الشّرف، القاهرة، مصر، ط١.
١٤. الشّيبي، كامل مصطفى، (د. ت)، شرح ديوان الحلّاج، منشورات جمل، ط ٢.
١٥. صليبا، جميل،(١٩٩٤م)، المعجم الفلسفي، دار الكتاب العالمي – بيروت، لبنان.
١٦. عيسى، عبدة غالب أحمد، (١٩٩٢م)، مفهو م التّصوّف، دار الجيل، بيروت، ط ١.
١٧. فتحي، إبراهيم، (١٩٨٦م)، معجم المصطلحات الأدبية، المؤسسة العربية للناشرين المتحدين، تونس.
١٨. فتوح، محمّد، (١٩٧٨م)، الرّمزية والرّمز، دار المعارف، مصر، ط ٢.
١٩. الفيروزأبادي، (٢٠٠٨م)، القاموس المحيط، نسخة منقحة وعليها تعليقات الشّيخ أبو الوفا نصر الهوريني المصري الشّافعي، راجعه واعتنى به: أنس محمّد الشّامي زكريا جابر أحمد، دار الحديث، القاهرة.
٢٠. القيرواني، ابن رشيق، (١٩٨١م). العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، حققه: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل – بيروت، ط ٥.
٢١. القيسي، محمود، د. ت. أدب الرّمز والإفصاح في أساليب الصّوفيّة، مجلّة مداد الآداب، ع ١٢.

٢٢. الكلاباذي، (١٩٩٨م)، التّعرف لمذاهب أهل التّصوّف، تحقيق: عبد الحليم محمود، مكتبة الثقافة الدّينيّة، مصر.
٢٣. متولي، مروة، حداثة النّص الأدبي المستند إلى التّراث العربي، دار الأوائل، سوريا، ط ١، ٢٠٠٨ م.
٢٤. مدرك، خالد بن العربي، القول المنبي عن ترجمة ابن عربي للسخاوي (دراسة وتحقيق)، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، السعوديّة، ١٤٢٢هـ.
٢٥. النّابلسي، شرح ديوان ابن الفارض، جمعه: رشيد اللبناني، دار الكتب العلميّة، بيروت، ١٩٧١ م.
٢٦. نصر، عاطف، الرّمز الشّعري عند الصّوفيّة، دار الأندلس للطّباعة والنّشر والتّوزيع بيروت، دار الكندي للطّباعة والنّشر والتّوزيع بيروت، ط ١، ١٩٧٨ م.
٢٧. نيسروي، سميحة، الرّمز الصّوفي (دراسة تأو يليّة)، جامعة بسكرة، الجزائر، ٢٠١٦ م.
٢٨. يونس، وضحى، القضايا النّقديّة في النّثر الصّوفي حتّى القرن السّابع الهجري، مطبعة اتّحاد الكتّاب العرب، دمشق.

References

The Holy Quran
١. ebn arabi ,(١٩٩٦ ad), al diwan explained by : ahmad hasan basj, House of Scientific Books, Beirut,Lebanon. ١st edition .
٢. ebn fares,(unknown date),language standards ,appllied and adjusted by : Abd Alsalam Mohammad Haroun , Dar Al Fekr for press ,distribution and publishing , section
٣. Ebn Katheer (٢٠٠٠ad), explaining The Holly Quran,adjusted by Mostafa Alsayed Mohammadand others,Qortoba institution, Cairo, ١st edition,section ٣
٤. Ebn Manzoor ,(١٩٥٦ad), The african and egyptian abou Al Fadel Jamal Aldeen Ebn Mohammad ebn Mokarram, Lesan Al Arab ,Dar Sader_ Beirut
٥. Adonees (١٩٨٢ad) ,Al Thabet & Al Motahawel , Dar al Awda , Beirut ٣rd edition,section ٢
٦. Ameen,Ahmad(١٩٣٦AD), the symbol in Al Sofi Literature ,Alresala magazine No.٣.p ٤.
٧. Bashlar,Ghaston,(١٩٨٤), Beauty of The Place,translated by Galeb Helsa, University Institution of press & publishing. Beirut. ٢nd edition.
٨. Jomayat,mona,(٢٠١٥Ad).The language in Sufil discource, Hawleiat Al-torath Magazine. Mostaghanm University. No١٥
٩. Hamdi, Ayman,(٢٠٠٠)Ad. Dictionary of Sufi terms(A heritage study with an explanation of the terms of Ahl al-Saffa from the speech of the last Saints).Dar Kebaa for press, distribution and publishing,Cairo.
١٠. Alkhateeb,Ali,(١٤٠٤)Ah.Trends in Sufi literature between Al-Hallaj and Ibn Arabi. Dar Al-Maaref،Egypt.

ISSN–2536–0027

١١. Khafaji, (U.k) Studies in Islamic Sufism and Its impact in Arabic Literature, Cairo Library, Egypt, Part ٢.
١٢. Department of Islamic Encyclopedia, (١٩٩٤), Sharjah Center for Intellectual Creativity
١٣. Zidane, Youssef, ٢٠٠٨, The Unknown Sufi Poets, Dar Al-Sharf, Cairo, Egypt, ١st edition.
١٤. Al-Shaibi, Kamel Mustafa, (U. K.), explaining Diwan al-Hallaj, Jamal Publications, ٢nd edition.
١٥. Saliba, Jamil, ١٩٩٤, The Philosophical Dictionary, International Book House, Beirut, Lebanon.
١٦. Issa, Abda Ghaleb Ahmed, ١٩٩٢, The Concept of Sufism, Dar Al-Jeel, Beirut, ١st edition.
١٧. Fat'hi, Ibrahim, ١٩٨٦, Dictionary of Literary Terms, Arab Foundation for United Publishers, Tunisia.
١٨. Fattouh, Muhammad, ١٩٧٨, Symbolism and Symbol, Dar Al-Maaref, Egypt, ٢nd edition.
١٩. Al-Fayrouz Abadi, ٢٠٠٨, Al-Qamoos Al-Muhit, revised version with comments by Sheikh Abu Al-Wafa Nasr Al-Hourini Al-Masry Al-Shafi'i, reviewed by: Anas Muhammad Al-Shami, Zakaria Jaber Ahmed, Dar Al-Hadith, Cairo.
٢٠. Al-Qairawani, Ibn Rashiq, ١٩٨١. Al-Umdah in The Virtues of Poetry, Its Etiquette, and Its Criticism. Verified by Muhammad Mohieddin Abdel Hamid, Dar Al-Jeel_Beirut, ٥th edition.
٢١. Al-Qaisi, Mahmoud, (U.K.). The Literature of Symbolism and Disclosure in the Methods of Sufism, Madad Al-Adab Magazine, No١٢.
٢٢. Al-Kalabadi, ١٩٩٨, Identifying the Doctrines of the People of Sufism, edited by: Abdel Halim Mahmoud, Library of Religious Culture, Egypt.
٢٣. Metwally, Marwa, The Modernity of the Literary Text based on the Arab Heritage, Dar Al-Awael, Syria, ١st edition ٢٠٠٨.
٢٤. Mudrik, Khalid bin Al-Arabi, Al-Munbi's saying about Ibn Arabi's translation of Al-Sakhawi (study and verification), Master's thesis, Umm Al-Qura University, Saudi Arabia, ١٤٢٢ AH.
٢٥. Al-Nabulsi, Explanation of Ibn Al-Farid Jum'ah Diwan: Rashid Al-Lebnani, House of science books, Beirut, ١٩٧١.

ISSN–2536–0027

٢٦. Nasr, Atef, The Poetic Symbol in Sufism, Dar Al-Andalus for Press, Publishing and Distribution, Beirut, Dar Al-Kindi for Press, Publishing and Distribution, Beirut, ١st edition ١٩٧٨.
٢٧. Nesrouri, Samiha, The Sufi Symbol (Interpretive Study), University of Biskra, Algeria ٢٠١٦
٢٨. Younis, Wadha, Critical Issues in Sufi Prose in the Seventh Century AH, Arab Writers Union Press, Damascus.

---

(١) الارتشاف: الامتصاص، يري الإشارة إلى ما عنده من أمور غيبيّة طيّبة المذاق.

(٢) غُدامس: موضع في المغرب.

مجلة كامبريدج للبحوث العلمية CAMBRIDGE SCINTIFIC JOURNAL